الملامح الاقتصادية في كتاب «البخلاء» للجاحظ

(١)

[لهذا الكتاب في ذاكرتي ما رأيت المناسبة تدعو لإيضاحه، حينما عينت سنة ١٣٧٠ للعمل مساعداً لمدير (معهد الرياض) عند إنشائه، أمرني رئيسه الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف - رحمه الله - بالسفر إلى مصر، لإحضار مناهج الدراسة في المعاهد الدينية وكليتي الشريعة واللغة العربية التابعة للأزهر، وكميات من الكتب التي يلائم تدريسها فكان مما أحضرت منها لدرس المطالعة للأقسام الثانوية «أدب الدنيا والدين» و«البخلاء» و«قصص العرب» فقرر تدريسها في الفصول الملائمة لها، وكنت أتولى تدريس بعض الحصص، فزار (المعهد) رئيسه الشيخ محمد ومعه الشيخ حامد الفقي رئيس أنصار السنة بمصر رحمهما الله وكنت في أحد الفصول والدرس مطالعة - فسألني الشيخ عن موضوعه فأخبرته وأنه في كتاب «البخلاء» فصاح الشيخ حامد: (أعوذ بالله كتاب المعتزلي الجاحظ يدرس في هذا المعهد!!) لم أستطع إقناعه بأنه ليس في الكتاب ما يحاذر منه، ولكنه وجد من الشيخ آذاناً صاغية إذ قال: ما الكتاب الذي تراه ياشيخ حامد ليحل محله؟ فقال: «فتح المجيد» وهذا الكتاب مقرر على الطلاب في «التوحيد» ولكنه تجاهل هذا مضيفاً، ولدينا منه كمية مطبوعة جاهزة، لعلكم تبرقون للشيخ فوزان لإرسالها بالطائرة! فانطلت الحيلة، ونزع ذالك الكتاب من الطلاب، ولقد ذكرتني هذا ما ورد في كتاب «التوحيد» للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله -، أن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق، فإنما يدعو إلى نفسه] رئيس التحرير.

تمهيد: كان عمرو بن بحر الجاحظ ذا فكر نيّر، وأسلوب رشيق ساخر. ينتمي إلى قبيلة كنانة(١)، ويمتلك قدرة عالية على الحفظ.

ولد الجاحظ حوالي سنة ١٥٠هـ، ومارس أعمال البيع والشراء قبل أن يشتهر بالأدب، وقد عاش ما يقارب المئة عام، وعاصر عدداً من خلفاء بني العباس، وشاهد كثيراً من الحوادث التاريخية، ولامس في حياته اليومية فئات المجتمع المتعددة فأكسبه ذالك خبرة واسعة في طبائع الناس، وممارساتهم اليومية(٢)، فألّف عدة كتب؛ منها كتاب «البخلاء» الذي نحن بصدد تناول بعض جوانبه.

الجاحظ وكتاب «البخلاء»: إن أفضل السبل لتشخيص الملامح الاقتصادية في كتاب «البخلاء» للجاحظ أن نتركه يتكلم ويسرد حكاياته عن البخلاء ونوادرهم، ويأتي على مجموعة من الأمثلة والشواهد والنوادر، بأشخاصها وأماكن حدوثها.

وهذا الكتاب متوسط الحجم، لا تتجاوز صفحاته المئة وخمسًا وسبعين صفحة من القطع المتوسط، والنسخة التي رجعت إليها تولت (مكتبة النهضة ببغداد) طبعها بـ(الأوفست) حاول الجاحظ أن يبين من خلاله حجة طريفة، أو حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة. ويحث القارئ على أن يتناوله إذا كلَّ حالة الجدّ، واتجه نحو اللهو، والراحة.

استهل الجاحظ كتاب «البخلاء» بمقدمة طريفة، استهدف من خلالها الوصول إلى ظاهرة (البخل) وأنواعها، وأسبابها، والدوافع الخفية التي تدفع الإنسان لأن يمارس هذا النمط من السلوك.

والمهم في الأمر، أن الجاحظ في كتابه هذا تناول نماذج متعددة من البخلاء، وقص لنا حكاياتهم ونوادرهم. ولِمَ سَمَّوُا البخل صلاحًا، والشح اقتصادًا، ولِمَ نصبوا للمواساة، وقرنوها بالهدر والتضييع، ولِمَ جعلوا الجود سرفًا وتبذيرًا، والأثرة جهلاً، ولِمَ زهدوا في الحمد... وقَلَّ اكتراثهم واحتفالهم في الذم، ولِمَ احتجوا بشظف العيش على لينه، وبحلوه على مُرِّه، ولِمَ رغبوا في الكسب والكدّ مع زهدهم في الإنفاق، ولِمَ عملوا في الغنى عمل الخائف من زواله، ولَمْ يفعلوا في الغنى عمل الراجي لدوامه، ولِمَ وفروا نصيب الخوف وبخسوا نصيب الرجاء مع طول السلامة وشمول العافية(٣).

يعترف الجاحظ بصعوبة الإحاطة بجميع أخبار البخلاء، كما نوه أنه سيتجنب ذكر أسماء بعضهم على الرغم من أن حكاياتهم تفقد جزءًا من قيمتها إنْ لم يُقْرن بها أسماء أصحابها. كما أنه تعمد إهمال البعض الآخر منهم خشية أن يفتضح أصحابها(٤).

قال الجاحظ عن كتاب «البخلاء»: إنْ وجدتم في هذا الكتاب لحنًا، أو كلامًا غير مُعْرَب، ولفظًا مدلولاً عن جهته، فاعلموا أنما تركنا ذالك لأن الإعراب ببعض هذا الكتاب يخرجه عن حَدّه. إلا أنْ أحكي كلامًا من متعاقلي البخلاء، وأشحاء العلماء(٥).

وبلا ريب، فإن الجاحظ كان يدرك أن المثل العليا الحميدة يبقى لها جمالها ووقعها الحسن عند الناس، وأن الصفات الذميمة - ومنها البخل - تَعيب الناس في كل زمان ومكان، وأن النماذج التي تناولها في كتابه «البخلاء» إنما ساقها على أساس أنها مثالب، توجد في كل المجتمعات البشرية، وإن كانت نسب وجودها تختلف بين مجتمع وآخر. وأحسب أن الجاحظ لم يكن يهدف إلى ذم أمة، أو إقليم، أو بلد، دون آخر. وإنما رأى حالات مرفوضة فجسَّدها وسَخِرَ منها.

ونلمس أن الجاحظ، في الوقت الذي يريد أن يعطي صورة واضحة عن ظاهرة اجتماعية مذمومة، يكون بعمله هذا قد شجب البخل والبخلاء على اختلاف أساليبهم ومشاربِهم. فقال هو عن نفسه: إنه وضع كلامه (موضع الضيم والنقمة)[٦]. وفي مواضع كثيرة كان ينحو باللائمة على البخلاء جميعاً.

ويبدو أن الجاحظ لم يجد وسيلة فاعلة للحد من ظاهرة البخل، وقطع دابرها، فاضطر إلى التنبيه إلى خطرها وذمها والحط من مكانة أصحابها في المجتمع.

ويصارح الجاحظ قارئ كتاب «البخلاء» أن كتابه هذا لا يصور لقارئه كل شيء، ولا يأتي له على كنهه وعلى حدوده وحقائقه، لأن الحكايات تكون أكثر تشويقاً عندما ترى بالعين[٧].

تصنيف الجاحظ للبخلاء: نستطيع أن نتلمس الملامح الاقتصادية في كتاب «البخلاء» من تصنيف الجاحظ لأنواع البخلاء. ذالك أن أبا عثمان ميّز أنواع البخلاء من خلال سلوكهم ومواقفهم وتصرفاتهم الاقتصادية إلى:

١- صنف يتظاهر بالكرم: حدد الجاحظ نمطاً من البخلاء؛ قال عنهم إنهم كانوا قد أدركوا أن صفة البخل التي يمارسونها مذمومة. وبذالك عملوا على التظاهر بالكرم والسخاء، علّهم يدفعون عنهم ما لحق بهم من استخفاف من جرّاء التصاق سمة البخل بهم. إلا أن عملهم لم يجديهم نفعاً في نظر الجاحظ، لأن وصمة البخل التي ألصقت بهم من الصعوبة إزالتها من أذهان الناس، ولو سَخَتْ نفس أحدهم بالكثير من التبر لا يغطي فعل من شح بالقليل من الطعام[٨].

٢- صنف يخشى الفقر : ويُوجد نمط آخر من البخلاء كان يخشى الفقر ويتطير منه، بحيث أنهم كانوا قلقين من زوال النعمة والغنى. فكانت تمتلكهم خشية شديدة من احتمال تعرضهم للفقر[٩]. فكانوا يزعمون أن ترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر[١٠]، يقول الجاحظ : إن البخلاء يقبحون أي نوع من أنواع السرف والتبذير، وبخاصة عندما يكون المسرف عاقلاً[١١].

٣- وميز الجاحظ نوعًا آخر من البخلاء، قال عنهم : إنهم خَصُّوا أنفسهم بالشقاء فمارسوا سلوكًا (أجمعت الأمة على تقبيحه)[١٢]. ففي هذا الشأن قال الجاحظ إن البخلاء كتبوا على أنفسهم الشقاء ونكد العيش، وخشونة المضجع، وطول الاغتراب، مع علمهم أن وارثيهم أعدى لهم من عدوهم.

ولم يتلمس الجاحظ للبخلاء عذرًا في سلوكهم هذا، لأنهم لم يظهروا الجهل والغباء، ولا انتحلوا الغفلة والحماقة. وإنما كانوا يبصرون بعقولهم البعيد والغامض. وبذالك تساءل عن الذي خبل عقول البخلاء، وأغشى أبصارهم، وتساءل مرة أخرى عن غبائهم الشديد الذي إلى جنبه فطنة عجيبة. وامتلكه العجب من أن البخلاء الذين فطنوا لعيب فعلهم، وإفراط شحهم، حاولوا تمويه فعلهم القبيح، في الوقت الذي يعلمون أن عملهم هذا لا يقبل التمويه، ولا يمكن ستره وإخفاءه. وأن قسمًا منهم فطن لعيوب الناس ولم يفطن لعيب نفسه حتى وإن كان عيبه لا يمكن إنكاره[١٣].

٤- ولاحظ الجاحظ على قسم من البخلاء فطنة عجيبة، لكن تصرفاتهم في الجوانب الاقتصادية والمالية تتسم أحيانًا بالغباء الشديد. إذ لا يسع الجاحظ إلا أن يمتلكه العجب ممن قد فطن وعرف عواقب إفراط لشحه، فحاول أن يُمَوِّه شيئًا لا يقبل التمويه، ورقع خرق لا يقبل الرقع. وهو بذالك يجاهد نفسه، ويغالب طبعه. ففي حقّ هذا النمط قال الجاحظ : ليته لما فطن لعيبه، فطن لضعفه عن علاج نفسه، وعن تقويم سلوكه[١٤].

وتكتسب الملامح الاقتصادية التي أوردها الجاحظ في كتابه «البخلاء» أهمية أنه كان قد شاهد قسماً منها بنفسه. فقد أورد كثيراً من الحكايات ذات الصلة بالجوانب الاقتصادية شاهدها بنفسه أو أنها رُوِيتْ له من قبل أناس شاهدوها، فقصوا له ما سبق لهم أن عاينوه. ونجد الجاحظ أحياناً يكتفي بعرض مضمون الحكاية دون أن يبدي امتعاضاً منها، أو شجبه لها. في حين نجده في نمط آخر من البخلاء يبدي استغرابه، أو سخريته منه دون أن يجامل أصحابه، أو يخشى منهم. ويكفي أن أتناول نوعين من البخلاء الذين أوردهم الجاحظ في كتابه:

الأول: الذين يبخلون في مواد الطعام: فقد ركّز الجاحظ في كثير من حكاياته وأمثلته على البخل في مواد الطعام. فعند تناوله رسالة سهل بن هارون إلى بني عمه حين ذموا مذهبه في البخل؛ أورد الجاحظ قوله لخادمه: (أجيدي عجنه خميراً). وحين قال لغلامه: (إذا زدت في المرق، فزد في الإنضاج، لتجمع بين التأدم في اللحم والمرق)(١٥).

وكان البخلاء يزعمون أن كثرة الخبز على مائدة الطعام، يورث النفس صدوداً. وقالوا: والخبز الفاضل عما يأكل الضيوف، لا يسلم من التلطيخ فيذهب ذالك الفضل باطلاً، والله لا يحب الباطل. وأن كل شيء من المأكول وغير المأكول، إذا ملأ العين ملأ الصدر، وفي ذالك موت الشهية وتسكين الحركة. وأحسب أنهم محقُّون حين يدعون إلى ضرورة أن يُقدم الطعام في طبق نظيف، مع خادم نظيف، عليه منديل نظيف(١٦).

وفي الحكاية الآتية يستمع الجاحظ إلى نموذج آخر من البخلاء الذين يُوصون أصحابهم بأن يطعموا عيالهم نوعاً من الطعام إذا تناولوه في وجبة الغداء أغناهم عن العشاء أيضاً(١٧).

ومن أن يظهر لنا الجاحظ بعض الملامح الاقتصادية من خلال تصرفات البخلاء جاء بمثال قال فيه: إن رجلاً بخيلاً كان يتردد كثيراً على منازل إخوانه

وأصدقائه، فكانوا يكرمونه بما لذ وطاب من الطعام، ولم يشكُّوا أنه سيدعوهم مرة إلى بيته، لكنهم وجدوا أن تغافله طال، وطالت مدافعته، فقالوا: (اجعلها دعوة ليس لها أخت). ففت في عضده، ووجد أن لا مناص من دعوتهم، فاتخذ لهم (طُعيمًا خفيفًا شهيًّا مليحًا، لا ثمن له ولا مؤونة فيه). ومع ذالك لم يشأ إلا أن يظهر لهم أنه أصبح أقرب إلى العوز والفقر من ذي قبل. ثم قال لهم: وما دامت الحال هكذا فمن يلومني على ترك دعوة قوم قربوني من الفقر، وباعدوني عن الغنى(١٨).

ويرى الجاحظ أن البخلاء كانوا يتعمدون الابتعاد عن كل من استسقاهم شربة ماء، أو تناولوا من حائطه لبنة، حتى لا يكونوا ملزمين برد إحسان من سبق أن أحسن إليهم.

ولم ينحرج البخيل من أن يقول لمن داهمه وهو على وشك - هو وضيوفه - أن يرفعوا أيديهم عن الطعام: (أَجْهِزْ على الجرحى، ولا تتعرض للأصحاء.. أعرض للدجاجة التي قد نيل منها، وللفرخ المنزوع الفخذ... ولك الرغيف الذي قد نيل منه وأصابه بعض المرق)(١٩). وبلغ الشح ببعض البخلاء أنهم كانوا لا يفضلون الطبخ في القدور الشامية، ولا تبريد الماء في الجرار المذاريَّة، لأن الثانية ترشح الماء كله، والأولى تنشف المرق كله(٢٠).

ويعرض لنا الجاحظ ملامح اقتصادية عن البخلاء في غاية الطرافة والندرة. حيث قال: إن البخلاء كانوا يغبطون الملائكة لأن الله سبحانه وتعالى لم يبتلهم بالنفقة على عيال لهم(٢١).

وأورد الجاحظ حكاية أحد البخلاء الذي كان يتباهى أمام الناس فقال: (ما فاتني اللحم منذ ملكت المال). وكان يرمي من وراء ذالك أنه: إذا كان يوم الجمعة اشترى لحم بقر بدرهم، واشترى بصلاً بدانق(٢٢)، وباذنجان بدانق، وقرعة بدانق، وجزر بدانق، وطبخه كله، فأكل وعياله يومئذ خبزهم بشيء من رأس القدر، فإذا كان يوم السبت ثردوا خبزهم في المرق، فإذا كان يوم الأحد

أكلوا البصل، فإذا كان يوم الاثنين أكلوا الجزر، فإذا كان يوم الثلاثاء أكلوا القرع، فإذا كان يوم الاربعاء أكلوا الباذنجان، فإذا كان يوم الخميس أكلوا اللحم. ولهذا قال: ما فاتني اللحم منذ ملكت المال(٢٣).

ونلمس وجود وصايا صحية من خلال حكايات البخلاء التي يرمون من ورائها التقتير في مواد الطعام. ففي هذا الشأن ساق لنا الجاحظ(٢٤) وصية بخيل لابنه يحثه فيها على عدم الإفراط في الأكل، فقال له: لو سألت حذاق الأطباء لأخبروك أن عامة أهل القبور إنما ماتوا بالتخم. وقال آخر لابنه: كل في ثلث بطنك، واشرب في ثلث بطنك، ودع الثلث الأخير للتفكير والتنفس. وأن الداء هو إدخال الطعام في أثر الطعام. فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة، وإن كنت تحب الموت، فلا يبعد الله إلا من ظلم(٢٥).

(للبحث صلة)

بغداد: د. حمدان عبدالمجيد الكبيسي

الحواشي:

(١) ياقوت، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ). «معجم الأدباء»، باعتناء مرجليوث، مطبعة هندية، (مصر، ١٩٢٥)، جـ١٦، ص٧٤.

(٢) المصدر نفسه، ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ)، «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»، دار الثقافة، (بيروت، ١٩٧٠)، جـ٣، ص ٤٧٠ وما بعدها.

(٣) الجاحظ، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ) «البخلاء»، طبعة بالأوفست من قبل مكتبة النهضة ببغداد، ص٥- ٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦.
(٥) المصدر نفسه، ص ٣١.
(٦) المصدر نفسه، ص ١٠.

(٧) المصدر نفسه، ص ٤٣.
(٨) المصدر نفسه، ص ٧.
(٩) المصدر نفسه، ص ٦.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٣.

(١١) المصدر نفسه، ص ٤٤ (ينظر: أبو طالب المكي «قوت القلوب» جـ٣، ص٢٢ وجـ٤، ص١٨١ و١٨٦- ١٨٩.

(١٢) الجاحظ، «البخلاء»، ص ٦.
(١٣) المصدر نفسه، ص ٦- ٧.
(١٤) المصدر نفسه، ص ٧.

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٢.
(١٦) المصدر نفسه، ص ٦٩- ٧٠.
(١٧) المصدر نفسه، ص ٣٣.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٣٢- ٣٣.
(١٩ و٢٠) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(٢٢) الدانق: يساوي سدس الدرهم. (ينظر: المقريزي، «إغاثة الأمة بكشف الغمة» ص ٥٧).

(٢٣) الجاحظ، «البخلاء»، ص ٩٠.
(٢٤) ينظر: «البخلاء»، ص ٨٢ وما بعدها.

(٢٥) الجاحظ، «البخلاء»، ص ٩٠.